حافرة الدراسة

إن الدخول إلى عالم النص الشعري أضحى نوعًا من الأفعوان المتخلق من الرماد، في ظل هذا الواقع الذي يحتشد بالنصوص التي تشبه المتواليات والمسائل الرياضية المعقدة، مما جعل طيور البوح تهجر مدائن الكلام، وسحب المعاني أمطرت ملحًا أجاجًا، وخلف الأشجار يركع الشيوخ الضعفاء يشاركهم الكركي بصوته الحزين، يرفعون أيديهم إلى السماء يتضرعون إلى رب العباد أن يسقط عليهم ثمرة من ثمار مريم، تكون وسط الغث رطبًا جنيًا.

إن القطيعة التي أحدثها النقد الحداثي وما بعد الحداثي بين النص وقارئه من جهة، والنص وناقده من جهة أخرى، كانت سببًا في تلك الغيبوبة الشعرية التي يعيشها النص في هذه الأيام، والفوضى النقدية التي يتزعمها كثير من النقاد المعاصرين وهم يتعاملون مع المناهج الحداثية، تلك المناهج التي لُقحت وأخصبت في أرض بعيدة عنا ووسط أجواء (ابستمولوجية) تختلف عن خلفياتنا الثقافية والمعرفية بدءًا من الأسلوبية فالبنيوية وانتهاء بالتفكيكية، هذه المناهج يرتبط وجودها ونشأتها بظروف سياسية واجتماعية وفكرية وفلسفية دعت لظهورها، وقد وضع أصحاب تلك المناهج أسسًا لمناهجهم تكاد تتفق مع محيطهم الثقافي ومع علاقات النص الأدبي الحديث.

وسرعان ما تسرب ماء تلك المناهج ليختلط بزيت التجربة العربية المعاصرة في ظل الانفتاح اللامشروط الذي شهدته الدوائر الفكرية العربية على غيرها من الغرب.

أدى ذلك إلى أمرين؛ الأول: كثرة الخائضين في دم النص الحديث ولحمه بغرض الكشف عن مواهبهم الحداثية، وإثبات ولائهم للنسق المقدس الذي يمثله الغرب، وليس بغرض قراءة النص، فجاءت أغلب القراءات بعيدة عن النص نفسه، لتصبح قراءة النص خارجة عنه.

والأمر الآخر: إهمال نصوص التراث العربي القديم، وقطع الصلة بين النقد الحديث والنص القديم بدعوى أن النص القديم لا يتوافق مع المعايير الحداثية، وأشكال التعبير التي أصبحت مختلفة، برغم أن مفهوم الحداثة لا علاقة له بالزمن، وقد أكد ذلك أحد زعماء الحداثة، وهو أدونيس الذي عد بعض الشعراء القدامى حداثيين وفقًا لمفهوم الحداثة الحقيقي "وما دام الإبداع حضورًا دائمًا فهو دائمًا حديث متجدد فتكون الحداثة - والحال هذه- خصيصة كافية في بنيتها ذاتها لا في زمنية الشيء آنيًا كان أم ماضيًا، فقد يكون امرؤ القيس في شعره أكثر حداثة من شوقي، وأبو تمام له من الحساسية في شعره ما تجعله صاحب رؤية فنية لا يعثر عليها القارئ عند نازك الملائكة".(١)

ومن هنا يصير النص القديم -في ظل الهجمات المنهجية والنقدية الشرسة- عرق حياة يجب على كل ناقد أن يتحسسه، ويستشعر دماءه المتدفقة، لعلنا نصل في النهاية إلى إضاءات متنوعة للنصوص القديمة وفق قراءات منهجية حديثة تخلق نوعا من الرؤى النقدية التي تثبت أن النص القديم ما زال يكتنز بأطروحات جديدة، وأفكار خصبة تنتظر ما تجود به الأراضي العربية من كنوز ما زالت مطمورة تنتظر عمليات حفر وبحث منظمة، ستسهم بلا شك في تقديم رؤية أعمق لكثير من الظواهر الفنية واللغوية في شعرنا القديم.

والقصيدة العربية تحتضن عالمًا كبيرًا من المفـــردات والتراكيـــب، والـــصور الجزئية والكلية، وجدان الشاعر العربي استطاع أن يستنفر المعطيات الطبيعية ليخلق منها نسجًا شعريًا يعبر عن ذاته وواقعه، فكانت القصيدة صورة لفكر هذا الشاعر ووجدانه.

وقد امتزجت الصورة الشعرية لدى الشاعر العربي القـــديم بمـــشاعر التـــردد، والقلق، والبحث فيما وراء الطبيعة والرمز والأسطورة، وبكثير مـــن التقنيـــات التي يري المحدثون وأصحاب المناهج النقدية الحديثة أنها نبت عصري ولد مع البعث الجديد والحركة الشعرية الجديدة، ومن ضمن هـــذه التقنيـــات وضـــوح الجانب الدرامي وتوظيفه في القصيدة العربية.

بيد أن هذه الدراسة ترى أن هذه التقنيات استخدمها الشاعر العربـــي القـــديم، وجاءت في قصائده، ولكن كان يعوزها – في القديم – الاصطلاح. ولما كانـــت الحركة النقدية بمعناها التقني تأخرت، ولم تظهر حتى القرن الثالث الهجـــري، ولم تتسع وتتجه إلى التطبيق إلا في القرنين الرابع والخامس الهجريين، ولـــم يستطع القدماء أن يصلوا إلى تحديد هذه المصطلحات، اتجه الباحثون المحدثون إلى تحديد هذه المصطلحات وربطها بالقصيدة الحديثة.

فأصبحت هذه الصورة التي أبدعها الفنان العربي القديم وارتبطت داخله – على مستوى أعلى – بالحضور والغياب تحتاج إلى دراسة. فكانت دراســـة "البنـــاء الدرامي في الشعر العربي القديم" والباعث الذي حدا بي لدراسة هذه الظـــاهرة هو اعتماد القصيدة العربية القديمة في بنائها على عناصر الدراما من زمـــان، ومكان، وحوار، وصراع، ومناجاة نفسية، ومونتاج.. وغيرها مـــن المكونـــات التي شكلت بنية النص. ولم تكن هذه المكونات واضحة وموظفة في كل قصائد الشعر العربي القديم، بل في الكثير منها.

ومن البواعث التي أدت إلى استخدام الشاعر العربي القديم عناصر التعبير الدرامي في قصيدته – دون تحديد أو قصد – الطبيعة بما تشتمل عليه من مكان تناوبت عليه رياح الموت وأمطار البعث، فتغيرت تضاريسه، وغدا التغير يشكل صراعًا نفسيًا في نفس الشاعر تجاه هذا المكان.

والصحراء التي جعلت منه فارسًا يخوض غمار الحروب؛ في ظل صراع قبلي؛ ويعبر عن ذلك بلغة الوصف التي تزخر بالحركة الدرامية. والحيوانات التي كانت تمثل دور الغريم الذي يصارع الشاعر في قصة شعرية يحتل الخيال مساحة كبيرة في نسج أحداثها، مما يخلق جوًا دراميًا دالاً على القص.

وتجربة الحب التي عاشها الشاعر العربي القديم التي اشتملت على الحوار الدرامي، والحركة الحسية، والقصة الشعرية المتكاملة العناصر في بعض الأحيان. وتجربة الموت التي عبر عنها الشاعر تعبيرًا موحيًا يتضح من خلال الارتداد بالذاكرة إلى الماضي، وإحياء الميت، والحديث عن شجاعته وإقدامه، ومواقفه في الحياة. والزمن بما يخلقه هذا الباعث من صراع في نفس الشاعر القديم بين الماضي والحاضر، بين الحضور والغياب، بين الشباب والمشيب، بين الحياة والموت.

أما عن مصطلح (الدراما) فقد تعددت أوجه التعريف بمصطلح "الدراما" والكشف عن مدلوله، والمعني الأول الذي ينفذ للذهن هو المعني اللغوي، فكلمة "دراما" تعني المسرحية الجادة التي لا يمكن اعتبارها مأساة أو ملهاة، وفيها معالجة لمشكلة من مشكلات الحياة الواقعية".(٢)

وتعني في الإنجليزية قصة أو رواية تمثيلية، وفي اللغة اليونانية حركة وترتبط بالمسرح "ذلك أنها تحيل القضية الفكرية أو المسألة الإنسانية المجردة إلى حركة متجسدة فوق خشبة المسرح من خلال مجموعة من الممثلين".(٣)

وظل هذا المفهوم سائدًا لفترة قريبة، وظل ارتباطه بالمسرح وعالم القص وثيقًا، وظهرت دراسات نقدية في الدراما تهتم بالنوع الأدبي الأوحد وهو المسرح أو القص الروائي.

وبعد ذلك تطور المفهوم الاصطلاحي وتغيرت الجهة الواحدة وانحرفت عن الدال اللغوي، فعرفت الدراما بأنها (الصراع في أي شكل من أشكاله).[٤] وأن الدراما (ليست مقتصرة على الأدب المسرحي وحده، وإنما هي تتحقق في كل أثر أدبي، إذ الدراما موقف أصلي في الإدراك الجمالي للعالم)[٥] وقد أدي تطور المفهوم الاصطلاحي لـ(الدراما) إلى اتساع الحلقة البحثية، والتشعب في التطبيق على الأنواع الأدبية الأخرى التي لا ترتبط بالمسرح أو القص الروائي، ولكن يتضح فيها ملامح هذين اللونين.

وقد ارتبطت الدراما بالشعر منذ القدم، فقد ربط أرسطو بينهما في تصنيفه للأجناس الأدبية، ولكن أرسطو كان يقصد الشعر الملحمي الذي كان يمثل لغة الخطاب للنموذج الدرامي. يذكر أرسطو في كتابه (فن الشعر) "أن نبالة نفس الشاعر أو حساستها قد نشأ عنها شعر أولي في المديح أو الهجاء، ثم تطور هذان إلى شعر الملاحم حتى أفضيا في نهاية التطور إلى المأساة والملهاة".. ويذكر "أن الشعراء القدماء بعضهم ألف بأوزان بطولية وأوزان إيامبية، ويستشهد بشاعر الملاحم (هوميروس)، ويقول "إنه برع في جعل محاكياته ذات طابع درامي".[٦]

أما عن علاقة الدراما بالشعر الغنائي فقد اتضحت، وظهرت عناصر الدراما في هذا الشعر، وأصبح الفعل الدرامي (لا يمتد امتداد مسرحية تستغرق ساعتين أو ثلاثًا، بل يضغط ويكثف ويعمل طاقته عن طريق التشبيه والتناقض والنكتة والإيقاع والقافية وغير ذلك من معتمدات الفن الشعري).[٧] ومن هنا شرعت الدراسة في الدخول لهذا العالم، وخاصة أن التشكيل الدرامي تندرج تحته سلسلة من المكونات التي تساعد في العملية الكشفية التي ترتبط بالنص الشعري فيما يسمي بعناصر البناء الدرامي.

ودراسة البناء الدرامي في الشعر العربي الحديث أو المعاصر تكاد تكون أكثر وضوحًا من وجودها في الشعر القديم وقد كثرت الدراسات التي تناولت مكونات جزئية من الدراما في الشعر العربي الحديث. ومن هنا ركزت هذه الدراسة على تناول التشكيل الدرامي داخل بنية القصيدة العربية القديمة. ويجدر بي أن أشير إلى الدراسات التي تناولت التوظيف الدرامي في الشعر، وبحث مدى اقترابها من موضوع البحث.

ولقد تبين – من خلال البحث والإطلاع – أن ما كتب في هذا الموضوع قليل، لأن معظم الكتابات تتجه إلى المعني الدرامي المسرحي، وارتباطه بعالم المسرح، أما التوظيف الدرامي في الشعر فلم أجد إلا دراستين تتناولان هذا الموضوع: دراسة تدرس "النزعة الدرامية في الشعر العربي المعاصر"[٨] وهي ترتبط بالشعر العربي المعاصر، ولم تشر في صفحة من صفحاتها إلى التوظيف الدرامي في الشعر العربي القديم. وأخرى تدرس "البناء الدرامي في شعر لبيد"[٩] وهي تركز على دراسة العناصر الدرامية التي اتضحت في شعر لبيد فقط، ولا تشير إلى الشعراء القدماء الآخرين. ومن هنا يصبح موضوع البحث – من الوجهة النظرية والتحليلية – جديدًا، ويحتاج إلى دراسة.

أما عن منهج الدراسة فقد اخترت المنهج (التحليلي الإحصائي) ويرجع اختياري للمنهج الإحصائي لأنه أثبت في الفترة الأخيرة أهميته، واستطاع أن يقدم ظواهر فنية كامنة في الشعر ظهرت من خلال الإحصاء. فعملية الإحصاء بالرغم من قربها من عالم الرياضيات وبعدها عن الفن، فإنها ساعدت في الدخول لعالم النص وعالم الكاتب نفسه، وتضافرت مع علم السيمولوجيا (الإشارة) لتصل إلى تحديد خصائص الكاتب، ومحاور النص الأدبي.

ولكن المنهج الإحصائي إذا استخدم بوصفه المنهج الوحيد لتحليل النص الأدبي، وأصبح هم الناقد أن يجري عددًا من النسب المئوية، فسيفقد النص الأدبي

قيمته وقدسيته كلون من ألوان الفن تلتحم فيه المشاعر الصادقة مع الصورة المتخيلة مع قدر من المعاناة والقلق، لتخرج لنا وليدًا اسمه القصيدة. لذا فلا تعتمد الدراسة على المنهج الإحصائي وحده، بل تعده منهجًا مساعدًا بجانب المنهج التحليلي الذي يعد المنهج الأساس في الدراسة.

وقد ركزت الدراسة في اختيار القصائد على وضوح عناصر الدراما في بنائها، لذا اقتصرت الدراسة على بعض الشعراء القدماء الذين ظهرت في قصائدهم هذه العناصر، وأغفلت الآخرين لعدم وضوح الجانب الدرامي في قصائدهم. أما عن خطة تقسيم أبواب البحث فقد مهدت للبحث بتمهيد نظري يبحث في مصطلح الدراما وعلاقته بالتوظيف الشعري، وقسمت البحث بعد ذلك لبابين:

باب يتعلق بدراسة النموذج، ويندرج تحته أربعة فصول:

الفصل الأول: يتناول دراما الرحيل (ألوان الصراع في النموذج الطللي).

الفصل الثاني: دراما الحرب (التصوير والحركة الدرامية).

الفصل الثالث: دراما الحب (درجة الحوارية وأسلوب القص).

الفصل الرابع: دراما الموت (الحركة من الثبات).

أما الباب الثاني فيتعلق بدراسة المقطع ويندرج تحته ثلاثة فصول:

الفصل الأول: القصة الشعرية عند أمية بن أبي الصلت والحطيئة.

الفصل الثاني: تنوع التشكيل الدرامي في ديوان أبي نواس.

الفصل الثالث: الصراع الداخلي في صورة الآخر عند تأبط شرا والبحتري.

والله الموفق

د. عماد حسيب